وليم كلي رايت

تاريخ الفلسفة الحديثة

ترجمة
محمود سيد أحمد

تقديم ومراجعة
إمام عبد الفتاح إمام

الفصل السادس عشر

نيتشه

١ ـ حياته

أصبح فريدرش فلهلم نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) F. W. Nietzche، الشاعر، والموسيقى، وكاتب المقال، وعالم اللغة الكلاسيكى، فيلسوفًا، ألبس أفكاره لغة وعرة ومحكمة مثل لغة «كارليل»، وخلابة فى جمالها مثل لغة «رسكين». ويقدم كتابه الرئيسى «هكذا تكلم زرادشت»، الذى يعد أفضل ما قدمه من وجهة نظر أدبية، فلسفته فى رمزية غامضة ومؤثرة تدعو القارىء لأن يفسر مغزاها الذى يكمن وراءها، وأن يحدد مقدار الحقيقة فى أقوالها المأثورة الرائعة. وأعماله الأخرى مثيرة بصورة مماثلة، ومفهومة بصورة أكثر سهولة. ولا شك أن نصف الحقائق المقررة بعاطفة شديدة، أى نصف الأخطاء ـ أو، فى الغالب الأعم، أقل من نصف الحقائق، وأكثر من نصف الأخطاء ـ لفيلسوف شاعر عاطفى مثل نيتشه، لا تقل أهمية عن استدلال متزن وشامل لأرسطو أو لهيجل. ومع ذلك، فإن نيتشه أكثر إثارة من فلاسفة أفضل اتزانًا، ولا يمكن لأحد أن يقرأه دون أن يحمله على تفكير جاد.

ويعتقد نيتشه أنه ينحدر من النبلاء البولنديين. ومع ذلك، فإن أجداده المباشرين كانوا لمدة جيلين أو ثلاثة ألمانًا من ناحية والده ووالدته، كانوا قساوسة بروتستانت ناجحين، وكانت زوجاتهم ـ اللاتى تميزن بأنهن قويات البنية، وعمرن طويلًا، وصحيحات الجسم ـ متشددات فى اللاهوت و«متطهرات» فى الأخلاق. ولا يستطيع أحد أن يكون له تراث أفضل من وجهة نظر خاصة بتحسين النسل. كان والد نيتشه، الذى كان يعمل قسيسًا فى «ريكن» فى مقاطعة سكسونيا البروسية، إنسانًا ذا خلق حسن ومقدرة، عمل مدرسًا خصوصيًا عند الأميرات الملكيات، وسمى ابنه، الذى تصادف أن يولد فى يوم عيد ميلاد الملك، على اسم صاحب السلطان. وتوفى والده بسبب سقوطه عندما كان نيتشه فى الرابعة من عمره. ونتيجة لذلك، تربى نيتشه فى بيئة نسائية ـ تتكون من والدته، وجدته،

وعمتين لم تتزوجا. وكانت الطفلة الوحيدة فى المنزل هى أخته «إليزابيث»، التى كرست نفسها له طوال حياته، وكتبت ذكريات قيمة بعد وفاته، ونشرت مراسلاته. وأدار النسوة المنزل بجد، لكن على أسس دينية ضيقة الأفق. وقد دللن الصبى، ويقول البعض أنهن أفسدنه، وكن يأملن أن يشب ويكون واعظًا ومبشراً متألقًا مثل والده وأجداده.

وكان رد فعل نيتشه على هذه التربية النسائية الودودة والمعدة إعدادًا جيدًا، لكنها غير حكيمة، مفهوما، وله ما يبرره، فقد كره أن يطلق عليه الصبيان الآخرين اسم «القسيس الصغير» فى أول مدرسة يلتحق بها، على الرغم من أن حرصه ، وأخلاقه، وهيئته، جعلت اللقب مناسبًا. وقرر أن لا يكون قسيسًا. وأدرك فى الحال عن طريق ملكات نقدية متطورة الصعوبات العقلية الموجودة فى إيمان والدته وجدته الساذج، وجنح إلى الطرف المقابل، فرفض المسيحية برمتها، وأصبح ملحدًا. وعندما التحق بالجامعة فى «بون» حاول فترة أن يدخن، ويشرب، ويدخل فى عراك ومشاجرات مثل الطلاب الآخرين. وهناك تلميح إلى أنه ذهب فى رحلة ليلية (من الليالى الحمراء) نجم عنها إصابته بمرض الزهرى وسوء صحته فى السنوات الأخيرة، لكن ليس ثمة دليل على ذلك لتدعيم هذا التلميح الذى ربما يكون غير صحيح. فقد كان يكره بغضب شديد الخلاعة من كل نوع، ولم يحاول أن يكون «رفيقًا حسن المعشر».

وقد حصَّل نيتشه معارف كثيرة وعلومًا بفضل ميله كطالب مزود بمواهب غير عادية، وأيضًا بفضل عالم اللغة الكلاسيكى ذائع الصيت «ف. ف. ريتشل» F. W. Ritschl، الذى بثَّ فيه حب الأدب اليونانى واللاتينى وعلم اللغة. وكتب أبحاثًا متألقة، تم نشر بعضها، وتم استدعاؤه فى سن الرابعة والعشرين لكى يشغل كرسى علم اللغة الكلاسيكى فى جامعة «بازل» فى سويسرا، بناء على توجيه من «ريتشل». وبدت آراؤه الجديدة فى علم اللغة رائعة بالنسبة لزملائه، ومنع استنكارهم لها، وربما ارتبط ذلك بواقعة مفادها أنه لم يزل صغيراً بالفعل، من جذب كثير من الشباب لحضور دروسه، أو أن يصبح مدرسًا ناجحًا. ومع ذلك، أهلَّته إنجازاته البحثية للترقية إلى درجة الأستاذية.

ودخل، أثناء الحرب البروسية ـ النمساوية، وعندما كان طالبًا فى جامعة «ليبتسج» فى سلاح المدفعية المتحركة بحماس رومانسى، ووجد أن العمليات الحربية كريهة، غير أنه ظل مستمراً بإخلاص حتى وقع من على فرسه وأصيب إصابة شديدة فى صدره أجبرته على

أن يخرج من الخدمة العسكرية. وعندما نشبت الحرب البروسية ـ الفرنسية فى عام ١٨٧٠، كان نيتشه قد أصبح مواطنًا سويسريًا، وأصيب بخيبة أمل لأنه لم يستطع أن يخدم فى الجيش الألمانى كمقاتل. والتحق بخدمة التمريض حيث عمل بجهد شديد. ووقع نتيجة للعمل الزائد والتعب ضحية للدفتريا والدوستاريا، واضطر إلى التقاعد. وربما تكون رؤيته للمعاناة المفزعة للجرحى الذين أحاطهم برعايته قد أصابته بصدمة عصبية لم يُشف منها تمامًا على الإطلاق، بصفة خاصة عندما عاد إلى واجبات أستاذيته فى «بازل» قبل أن تكتمل صحته البدنية فتمكنه من القيام بتلك الواجبات. وقد عانى بعد ذلك من إجهاد فى العين، وصداع شديد، وسوء هضم، وأرق، لكنه استمر فى التدريس حتى اضطرته صحته السيئة إلى أن يستقيل من الأستاذية فى عام ١٨٧٩ .

وعاش السنوات العشر التى تبعت عام ١٨٧٩ على دخله الشخصى المتواضع، ومعاشه كأستاذ، متنقلًا من مكان إلى مكان، خاصة إلى أماكن فى سويسرا وإيطاليا الشمالية، يعيش بمفرده ويسعى إلى استعادة صحته. وإبان تلك السنوات، نشر أعماله الأكثر شهرة، غير أنها لم تلق إلا اهتمامًا ضئيلًا. وفى يناير عام ١٨٨٩، أصيب بسكتة فى الدماغ جعلته يفقد الوعى لمدة يومين، ولم يستعد على الإطلاق سلامة عقله، سوى لحظات قليلة. ومنذ ذلك الوقت، قامت والدته برعايته، وبعد أن ماتت فى عام ١٨٩٧، تولت أخته رعايته. وإبان تلك السنوات الأخيرة التى يرثى لها، بدأت كتاباته تجذب الانتباه، وأصبح من الفلاسفة المقرؤين بصورة أكثر انتشارًا.

لقد كان هذا الإنسان غير العادى ليّن الجانب، ودودًا، ومهذبًا فى تصرفه، على الرغم من أنه كان عصبيًا وسريع الانفعال فى بعض الأحيان، ولم يكن من السهل لأى واحد أن يصاحبه لمدة طويلة. وصور أصدقاءه فى صورة مثالية، وربما كان يعرض عنهم عندما انتبه إلى عيوبهم. ولم يحد باستمرار عن المسار الذى اعتقد أنه صحيح ـ وهو الدفاع عن الإطاحة بالثقافة المسيحية الحديثة والأخلاق الديمقراطية، وإحياء ما اقتنع أنه مثال الحياة اليونانى الأرستقراطى القديم. وقد ضحى بصداقات ومكانة شعبية من أجل الحقيقة كما كان يراها. وبعد أن تقاعد، وعاش فى عزلة، يصارع المرض المستمر والألم، كتب كتابًا إثر كتاب دون أن يلاقى تقديرًا حتى بعد أن فقد عقله. والقول بأنه لم يجد أحدًا يعجب بشجاعته وإخلاصه، كما يحكم عليه البعض، هو قول ليس فى محله بدرجة كبيرة.

٢ ـ المرحلة الأولى

تبدأ المرحلة الأولى من عمل نيتشه كفيلسوف بكتابه «ميلاد المأساة» الذى نشر عام ١٨٧٢، وتنتهى فى عام ١٨٧٩ . ويفسر نيتشه، فى هذا الكتاب، المغزى الباطنى للحياة اليونانية والأدب كما يراه. وهذا المغزى هو صراع بين «إرادة الحياة» الأصلية عند شوبنهور، التى يحولها نيتشه إلى تأكيد سار ومندفع لغرائز، ساذجة، وسريعة الانفعال، ولا تخضع لقانون، وهى التى كانت مرتبطة بمراسم احتفالات «ديونسيس» (أو باخوس)(*) وفى مقابلها التفكير الهادىء، والمنظم، والعقلى، الذى يرمز إليه «أبوللو»(**)، إله الحكمة والعدالة والذى ارتبط بربات الفنون. والإفراط فى الموقف «الأبوللونى»، جعل، اليونان عقليين أكثر مما ينبغى، وأكثر اهتمامًا بالتاريخ الماضى والتفكير المجرد. وعندما أصبح هذا التفكير فى النهاية، مهيمنًا مع سقراط وبعده، أدمن اليونان التحليل الفلسفى حتى إنهم توقفوا عن أن يكونوا رجال عمل أو مساهمين عظام فى الشعر والفن فأعقب ذلك الانحطاط والفساد. أما الإفراط فى الموقف الديونسيسى، فلم يكن أكثر من استباحة للقانون، والسُكر، والنزاع. لقد كان اليونان فى أحسن الأحوال شعراء ورجال عمل عندما ارتبط الاثنان بصورة ملائمة جدًا ويخفف كل واحد منهما من حدة الآخر. وأوضح «هوميروس» أفضل شعراء التراجيديا ذلك الارتباط فى مستويات مختلفة من الحضارة. وعندما كتب نيتشه ذلك الكتاب، اعتقد أن الارتباط الصحيح للاتجاهين يُدرك فورًا فى العالم الحديث عن طريق التطور الأبعد للموسيقى الألمانية، الذى كان صديقه «ريتشارد فاجنر» R. Wanger آخر وأفضل معبر عنه.

(*) ديونيسوس (أو باخوس) هو إله الخمر عند اليونان الذي فرّق الجبابرة جسمه أرباً وسلقوها في قدر، فأنقذت الآلهة أثينا قلبه، وأعطاه «زيوس» كبير الآلهة إلى «سميلي» فحملت به وولد الإله مرة أخرى. وهو يرمز إلى السُكر والنشوة والموت ثم الميلاد من جديد قارن «معجم ديانات وأساطير العالم» تأليف د. إمام عبد الفتاح إمام المجلد الأول ص ٣٠٣ وما بعدها ـ مكتبة مدبولي بالقاهرة عام ١٩٩٦ (المراجع).

(**) الإله أبوللو Apollo هو أحد آلهة الأولمب الأثنى عشر في أساطير اليونان وهو إله متعدد الوظائف. فهو إله النبوءة والعلاج والشفاء، والموسيقى، والرماية، والشباب، والفنون، والعلم والفلسفة ولما كان راعياً للموسيقى وغيرها من الفنون فقد ارتبط اسمه بربات الفنون التسع Muses وهي بنات زيوس كبير الآلهة. قارن «معجم ديانات وأساطير العالم» المجلد الثاني ص ٤٣٥ وما بعدها (المراجع).

وقد قبل نيتشه، فى ذلك الوقت، فلسفة شوبنهور، فى ملامحها المثالية والإرادية. فالعالم من حيث إنه إرادة هو الأساس، أما من حيث إنه تمثل فهو ثانوى ومشتق. كما قبل رأى شوبنهور فى الفن بوجه عام. فالموسيقى تكشف عن العالم من حيث إنه إرادة، فى حين أن الفنون الأخرى تكشف عن الأفكار. ويختلف نيتشه عن شوبنهور فى أنه يأخذ الفن بصورة أكثر جدية. فالفن ليس مجرد تخفيف مؤقت لصراع الإرادة العقيم والذى لا يتوقف. بل يجد فيه نيتشه متعة استاطيقية عظيمة حتى إنه يعتقد أن الإرادة تصل فيه إلى إشباع إيجابى مبهج، وتكون الحياة فى هذه الحالة أكثر قيمة وفائدة. ويذكرنا نيتشه بشلنج والفلاسفة الرومانسيين الألمان الآخرين، فى حبه المبهج للجمال الموجود فى الطبيعة والفن. إن الإنسان لا يتحمل فحسب عن طريق الإبداع الاستاطيقى والتذوق، بل إنه يستمتع بالحياة بصورة إيجابية ويجد أنها خيّرة أيضًا. إن العالم يصبح مبررًا ميتافيزيقيًا فى وجوده لأنه يجعل الخبرة الاستاطيقية ممكنة. ولذلك يبدأ نيتشه فى ذلك الكتاب باستبدال الأمر الإيجابى «بتأكيد إرادة القوة»، بأمر شوبنهور «بإنكار إرادة الحياة». وكان يعنى بالقوة فى ذلك الوقت الفعل، بصفة خاصة فى الإنتاج الاستاطيقى والمتعة. ويشير إلى المسيحية إشارة طفيفة، غير أنه يقصد بوضوح استبعادها، التى يفسرها، مثل شوبنهور، بأنها ديانة تعلم إنكار إرادة الحياة ـ إنكار لا يستحسنه، بصورة لا تشبه شوبنهور. إنه يريدمن المحدثين أن يقوموا بإحياء التأكيد اليونانى القديم للإرادة مرتبطًا بالاتجاهين الأبوللونى والديونسيسى، يكون فيه الإبداع الفنى فعالًا ويكون الناس أقوياء وأشداء ولايستغرقون فى تأمل مجرد أو فى إحسان مسيحى وزهد إلى حد أنهم يفقدون فاعليتهم ويدب فيهم الفساد والانحلال.

ويتضمن العمل الرئيسى الآخر فى هذه الفترة وهو كتاب «خواطر فى غير أوانها» وجهة نظر مماثلة. ويعرض نيتشه فى هذا الكتاب العيوب الثقافية فى ألمانيا آنذاك، ويحث على الإصلاح. ويرى أن التعامى عن تلك العيوب خطأ كبير، وتصور أن الانتصار الحالى على فرنسا يرجع إلى سمو الثقافة الألمانية. إن النصر العسكرى هو ببساطة ثمار الشجاعة الأخلاقية والجسدية، التى تفوق فيها الألمان باستمرار، تحت توجيه القادة (الجنرالات) الأكفاء. إن الثقافة الألمانية لا تزال أدنى إلى حد كبير من ثقافة فرنسا، التى تعلم منها الألمان كثيرًا. ويقيِّم دراسة التاريخ، التى من مزاياها التحرر من الأفق الضيق للحاضر، ومعرفة الأحداث الماضية، والتعرف على روح الماضى المبدعة العظيمة. ويمكننا، عن طريق دراسة

نقدية للتاريخ، أن نخطط بعقلانية لمستقبل يكون إبداعًا جديدًا، وليس تكرارًا للماضى. ويجعل الاستخدام الخاطىء للتاريخ، من ناحية أخرى، ـ ويبدو أنه اعتقد أن التاريخ يُدرَّس ويُعلَّم باستمرار بطريقة خاطئة ـ الناس خامدين، ويعطيهم إحساسًا بالدونية مقارنة بشخصيات الماضى العظيمة، إنه يجعلهم مقلدين فقط، وببغاوغات. ويهاجم «ديفيد شتراوس» بتهكم، الذى يتهمه باستخدام التاريخ بطريقة خاطئة. ويتمسك بشوبنهور من حيث إنه نموذج للمعلمين، لأنه كان مفكرًا مبدعًا ومستقلًا. ويرى فى «ريتشارد فاجنر» فنانًا عظيمًا استطاعت موهبته أن تكشف عن الروح الحقيقية والتاريخية والأسطورية لأبطال العصور الوسطى، ويستخدم التاريخ، من ثم، استخدامًا صحيحًا، وسيؤدى إصلاحه للموسيقى والمسرح مع مرور الأيام إلى تطورات فى كل مكان ـ فى عادات الناس، والتعليم، والتواصل الاجتماعى. ولقد أخطأ نيتشه فى تقديراته «لشتراوس»، و«فاجنر»، و«شوبنهور»، كما يعترف فيما بعد، لكن وصفه للشخصيات يكشف عما عساها أن تكون مُثله الخاصة، وعن أنواع الناس التى تتفق ـ أو لا تتفق ـ مع هذه المُثل.

٣ ـ المرحلة الثانية

يؤرخ للمرحلة الثانية من حياة نيتشه من عام ١٨٧٨ حتى عام ١٨٨٢ . وهى تبدأ بالتدهور الخطير فى صحته الذى اضطره إلى أن يستقيل من أستاذيته وأصبح بعيدًا عن «فاجنر»، الذى خيب أمله إلى حد كبير، بسبب إعجابه المتزايد بالمسيحية الزاهدة الذى عبَّر عنه فى «أوبرا برسيفال». ولم يعد نيتشه يأمل فى أن يقوم فاجنر باستعادة الموقف اليونانى من الحياة. وكان نيتشه مضطرًا، بدون مساعدة من غيره، إلى أن يفعل ما يستطيع لكى يحدث الإصلاح الذى اعتقد أنه لا مناص منه لو أرادت البشرية أن تصبح سليمة مرة أخرى، وتتغلب على الانحلال والفساد. وفى عزلته ووحدته، عندما كان يعانى من تعب عينه الشديد، وكان مهددًا بالعمى، وكان عصبيًا بسبب قلّة النوم، وابتعد، جزئيًا، عن أقاربه بسبب رفضه للمسيحية، ناضل بعزم ثابت، وكتب أفضل ما استطاع. لم يتمكن من العمل إلا لفترات قصيرة كل مرة، ووجد أنه من الأفضل فى ظل تلك الظروف أن يعبر عن نفسه فى إنشاءات قصيرة تتكون فى الأغلب من أقوال مأثورة، كتبها بصورة جميلة، ولاذعة، وتجذب انتباه القارىء، وتجبره على التفكير. وجمع نيتشه تلك الإنشاءات القصيرة فى

كتاب، يخلو من أية بنية منطقية محددة أو حجة متصلة. وربما عرف أن كثيراً من أقواله كانت مبالغات، ويبدو أن بعضًا منها كان يناقض البعض الآخر، بناء على فحص سطحى على الأقل. ومع ذلك، كان اللُب الأساسى لتفكيره متسقًا، وكان يأمل فى أنه قد يتبين أنه قاطع وقوى الحجة.

والكتب الثلاثة فى هذه الفترة هى: «إنسانى، إنسانى إلى أقصى حد»، و«الفجر»، و«الحكمة المرحة» كتب الكتاب الأول عندما كان إحباطه وصحته السيئة فى حالتهما القصوى. ويبين، فى الكتابين الأخيرين، آثار الصحة التى تحسنت إلى حد ما، والأرواح الأكثر بهجة، والثقة العظمى؛ وأصبحا بعد ذلك أكثر تماسكًا وأفضل تنظيمًا فى التفكير والبناء.

وتظهر تلك الكتب إعجابًا بالبحث العلمى، ومعرفة طفيفة بالبيولوجيا، وعلم الاجتماع؛ وهذا هو كل ما يبرر تسمية تلك الفترة باسم «المرحلة العلمية». وفى بعض الحالات يكون شاكًا بعض الشىء : فهو يعتقد أنه لا يمكن معرفة الصدق المطلق والأخلاق، ويجب رفض كل ميتافيزيقا. ولابد أن يعتقد الناس ويفعلوا بمقتضى مبادىء تكون فعالة باستمرار. ومع ذلك ، يظل نيتشه، بوجه عام، بما فيه الكفاية ميتافيزيقيًا يعتقد أن الحقيقة القصوى للعالم هى الإرادة. ومثله الأعلى الأخلاقى والاجتماعى ليس هو المواطن القومى الألمانى، وإنما هو الرجل «الأوربى الجيد» الموهوب «بروح حرة»، والذى يتحرى الحقيقة بلا خوف ويكشف عن الادعاءات الكاذبة والخرافات. ولذلك، أهدى كتابه «إنسانى، إنسانى إلى أقصى حد» إلى ذكرى «فولتير»، فقد كان نشره يصادف مرور مئة سنة على وفاة فولتير. أما الأخلاق فهى نسبية إلى حد كبير، وما هو صحيح بالنسبة لإنسان أو لعصر ما قد يكون خاطئًا بالنسبة لإنسان آخر أو لعصر آخر، فليست هناك معايير أخلاقية ثابتة؛ والناس أشبه «بأرواح حرة» يجب ألا تقيدهم عادات، ولهم الحرية فى أن يبحثوا عن الخير لأنفسهم وفقًا لأحكامهم الخاصة[١]. ومع ذلك، يبدو أن نيتشه كان مقتنعًا بأن كل «الأرواح الحرة» تقبل مثله الأخلاقية الخاصة، التى، بينما لا يتصورها بوضوح كما تصورها فى مرحلته الثالثة، فانها تتضمن فضائل المنزلة الأرستقراطية لدى اليونان القدماء مثل: الأمانة تجاه الذات والأصدقاء، والشجاعة ضد الخصوم، والكرم تجاه المنهزم، والأدب تجاه الجميع[٢].

ويرفض المسيحية بشدة لأسباب عدة. فليس هناك إله، والإيمان بإله انقرض تقريبًا،

وذلك ما يقصده عندما يقول «لقد مات الإله». والصلاة سُخف وبطلان. والمسيحية كما علمها «يسوع» فى الأصل سيئة؛ وأصبحت أسوأ عن طريق «بولس» وأولئك الذين جاءوا بعده. إنها تأكيد زائف على الحب، والشفقة، والتعاطف. هكذا أطاحت بالمثل والقيم اليونانية القديمة. إنها مفسدة تمامًا للإنسان الحديث، الذى يجب أن يكون «روحًا حرة»، ويثبت وجوده، ويعتمد على نفسه. وتصورها للخطيئة والإثم تصور خاطىء، لأن الإرادة لا تكون حرة، ولا يحكم الناس فى أمر من الأمور إذا لم يكونوا مسئولين عن أفعالهم. وسوف لا يُلام المجرمون ولا يعاقبون إذا لم يكونوا مخطئين ومذنبين، وهنا يبدو أن نيتشه قد سبق أفكار أكثر الرديكاليين من بين علماء الإجرام المعاصرين[٣].

٤ ـ المرحلة الثالثة

أهم أعمال المرحلة الأخيرة من حياة نيتشه (١٨٨٣ ـ ١٨٨٨) هى: «هكذا تكلم زرادشت»، الذى يغطى مجال فلسفته بأسرها، لكن يصعب فهمه بسبب رمزيته المجازية، على الرغم من أنه كتاب ذو جمال نادر. ويعبر «زرادشت» عن آراء نيتشه، ويجب أن يُقرأ هذا الكتاب والقصائد ـ وهى ليست صعبة ـ باللغة الألمانية لو كان ذلك ممكنًا، حتى تُقدر من وجهة نظر أدبية. وكتاباه «بمعزل عن الخير والشر» و «أصل الأخلاق» كتابان يسهل فهمهما. وهما يؤكدان مسألة التفاوت فى تقييم جميع القيم. وكان نيتشه ينوى أن يكون كتابه «إرادة القوة» أعظم مؤلفاته، ويقدم فيه عرضًا نهائيًا وكاملًا لمذهبه كله. وهو إلى حد ما أكثر كتبه إقناعًا، على الرغم من أنه اضطر إلى أن يتركه دون أن يكتمل. وكتاب «عدو المسيح» هو هجوم ممتد على المسيحية. وكتابه «هذا هو الإنسان» هو سيرة حياة، كتبه قبل السكتة التى تعرض لها بسبب جلطة فى دماغه، وكلفته سلامة عقله. وينم العنوان وعناوين الفصول عن هوس العظمة، لكن الكتاب ذو قيمة لأنه يُلقى الضوء على طبيعة تفكيره وتطوره[٤]. ولأن كل كتب تلك المرحلة تتفق فى التفكير بصورة جوهرية، فلا داعى لأن نقدم لها تفسيراً منفصلاً.

لقد أكد «شوبنهور» أن الحقيقة الأساسية هى الإرادة، وأن العالم من حيث إنه تمثل ثانوى. ويستمر «نيتشه» فى الإيمان بذلك، على الرغم من أنه لم يعتقد فى مرحلته الثالثة أنه يمكن تطوير منطق للتفرد مثلما فعل «شوبنهور» عن طريق مبدئه فى العلّة الكافية.

وبهذا المعنى الضيق فقط يرفض نيتشه الميتافيزيقا. ولقد أكد شوبنهور أن الإرادة تغلب نفسها باستمرار، فطالما أن عالم الأشخاص والأشياء عالم سيء لا علاج له، فمن الأفضل إنكار الإرادة إنكاراً تامًا. ويعتقد نيتشه، كما رأينا، حتى فى مرحلته الأولى أن الإرادة تكون ناجحة ولها ما يبررها فى الخبرة الاستاطيقية؛ فالإرادة، التى يوجهها تأليف مناسب للمبدأ الديونسيسى والأبوللونى، ينبغى تأكيدها من حيث إنها «إرادة القوة». ويستمر نيتشه فى مرحلته الثالثة فى الاعتقاد بذلك. ولديه الآن أسباب إضافية لاستمراره فى ذلك الاعتقاد، خطرت على باله عن طريق القراءة العلمية التى انشغل بها أثناء مرحلته الثانية.

وقبول نيتشه «لمذهب التطور» هو مثال على ذلك. فمن المحتمل أنه آمن بالتطور البيولوجى من قراءة «دارون»، و«سبنسر»، غير أن تفسيره للتطور مختلف أتم اختلاف عن تفسيرهما، وهو يشير إليهما بازدراء باستمرار. فليس الصراع بين الأنواع المختلفة، وبين أفراد من نفس النوع، عند نيتشه هو الصراع عند دارون، فالنضال هو من أجل الوجود، وليس نتاج بقاء تلك الأنواع وهؤلاء الأفراد الذين تصادف أن تطابق اختلافاتهم العرضية البيئة. ويرفض نيتشه الآلية والمادية تمامًا. فهو يعتقد أن القوة الدافعة الأساسية فى الطبيعة هى إرادة القوة. وتصوره هذا يشبه تصور «شوبنهور»، و«لا مارك» البيولوجى الفرنسى، أكثر من أى بيولوجى انجليزى. وإرادة القوة هى قوة نشطة تشكل صوراً وتخلقها؛ وتستخدم البيئة وتستغلها من أجل غاياتها الخاصة. والتغذية والتكاثر عمليتان تحافظ بواسطتهما الإرادة على نفسها وتتغلب على العقبات. والألم ذو قيمة إيجابية؛ لأنه يعطى الإرادة فرصة لأن تتغلب عليه. إن نيتشه ليس فيلسوفًا من أنصار اللذة، فهو يمجد الألم بصورة مطلقة. والشعور، والوعى، والتفكير، عمليات نشأت مؤخراً تحقق بواسطتها الإرادة الانتصارات على الطبيعة.

وقد أرجأ نيتشه تفسيره للتطور إلى مناقشته للمنطق، والأخلاق. فالعمليات المنطقية، بما فى ذلك مقولات كانط، لا تمتلك شيئًا قبليًا أو كليًا عن هذه العمليات. فهى نتاج للتطور، وهى أدوات تخترعها الإرادة وتستخدمها لأغراضها؛ لأنها لا تخبرنا بشيء عن الطبيعة الحقيقية للواقع. والحقيقة هى ببساطة ما يعمل باستمرار، والخير هو فقط ما يساعد على إنجاح رغبات الإرادة. ولا وجود لمعايير مطلقة سواء فى المنطق أو فى الأخلاق، وما يكون صادقًا وصحيحًا فى وقت ما قد يكون زائفًا وخاطئًا فى وقت آخر. وكثيراً ما يقال إن «النسبية البيولوجية» عند نيتشه، كما تُسمى أحيانًا، والتى تظهر فى تلك الآراء فى

المنطق والأخلاق، تكشف عن تشابه ضئيل مع آراء البرجماتيين الأمريكيين، من أمثال «وليم جيمس» و«جون ديوى»، غير أن تصوراتهم قد تطورت وطبقت بطرق مختلفة أتم الأختلاف، ولا تدين بشيء لنيتشه. وبينما يبدو نيتشه أحيانًا أنه ينكر وجود معايير مطلقة فى المنطق والأخلاق، إلا أنه مع ذلك يعتقد بوضوح أن فلسفته الخاصة هى حقيقة مطلقة، وأن تأكيد إرادة القوة صحيح بصورة مطلقة باستمرار وخير بصورة مطلقة. إن نيتشه ليس أساسًا فيلسوفًا نسبيًا وليس فيلسوفًا برجماتيًا.

إن إرادة القوة خيرّة. فهى تجعل تطور أنواع الحياة العليا ممكنًا. كما أنها انتجت فى المرحلة اليونانية المبكرة أفرادًا أقوياء، وأكفاء، ذوى أجسام صحيحة وجميلة، وعقول ثاقبة، وقوى استاطيقية لديها القدرة على الإبداع والتذوق. وكان يمكن أن تستمر فى أن تفعل ذلك لو أن الحضارة الأوربية لم تسر على الطريق الخاطىء أثناء الألفين سنة الماضية، مشجعة أفرادًا ضعفاء، وغير أكفاء، وغير مناسبين من الناحية البيولوجية، وذوى إرادة قوية تَم قمعها وكبحها، وهم من نوع يشبه الارستقراطيين اليونانيين القدماء. ومن ثم يستشهد نيتشه بعلم البيولوجيا فى الدفاع عن الرغبة فى استعادة الحضارة اليونانية. فالنوع اليونانى القديم كان صحيحًا من الناحية البيولوجية، أما النوع المسيحى فهو فاسد ومتدن. وإذا تمكنا من إحياء النوع القديم، واستعدنا المثل العليا القديمة، فربما يمكن استئناف مسيرة التقدم المتطور، بحيث يظهر فى المستقبل «الإنسان الأعلى» Superman، الذى يفوق كثيرًا الإنسان كما نعرفه والذى يفوق القردة الآن. والحروب العرضية، أى من حين لآخر، مطلوبة لكى تطور الشخصيات الصلبة والرجال النشطين الشجعان، ولكى تسهّل تطور الأنواع العليا. وهكذا يجد نيتشه فى التطور البيولوجى ضمانًا لإمكان التقدم. وتثبيط الهمم فى حالة الإنسان الراهنة، والتشاؤم ليس استدلالًا حتميًا كما يرى شوبنهور؛ لأن التقدم ممكن، مع وصول الإنسان الأعلى.

ويؤكد تفسير نيتشه للعلم الفيزيائى الحديث فكرة التطور القديمة فى دوائر علّمها بعض فلاسفة اليونان الأوائل أمثال «هرقليطس»، و«أنباد وقليس»، و«فيثاغورث». وصيغة نيتشه لذلك هى قانونه «العود الأبدى» eternal recurrence. فطالما أن المكان، والمادة، والطاقة، متناهية ومحدودة فى الكمية، بينما الزمان ليس له نهاية، فمن المحتم أن نفس ارتباطات المادة والطاقة فى المكان سوف تحدث مرة ثانية، وثانية فى المستقبل. وإذا كنت إنسانًا بطلًا قويًا ذا ثقافة، تعيش حياة نبيلة، ترغب فى أن تعيش مرة أخرى عددًا لامتناهيًا

من الأوقات فى المستقبل، فإن توقع العود الأبدى يرحب بك، وإذا دب فيك الفساد والإنحلال، فإنك تنفر من الفزع أمام التوقع حتى إنه يجب أن تعيش الحياة نفسها مرة أخرى وأخرى، أى تعيش عالمًا بدون نهاية. ولا يستطيع سوى الإنسان النبيل، والبطل المرح، أن يواجه العود الأبدى بهدوء واطمئنان.

ولذلك، فنحن نحتاج إلى تجاوز كل القيم، أعنى رفض قيم المسيحية المتداولة، والديمقراطية، والنفعية، والاشتراكية، والعودة إلى قيم النبلاء والأرستقراطيين القديمة. ويعتقد نيتشه أن لفظى «خيّر»، و«سيىء» (Schlecht) قد استخدما فى أخلاق السادة القديمة بمعنى ما، وأن لفظى «خير» و«شر» (bose) قد استخدمهما العبيد بمعنى مختلف. فلفظ «خير» يعنى بالنسبة للسادة، مثل الأرستقراطيين اليونانيين القدماء، وفاتحى الهند الآريين، والرومان القدماء، والغوطيين، والأسكندنافيين، والأشراف من العرب، والألمان، واليابانيين ـ أشخاصًا مثلهم، أى «حيوانات شقراء» رائعة، ورؤساء وحكامًا، وملاكًا أغنياء وعظماء. وهؤلاء شجعان، وصرحاء، وأمناء، ذوو نفوس صافية، لا يتزوجون من الطبقات الدنيا. أما لفظ «سىء» فيعنى بالنسبة لهم (للسادة) الناس الذين قهرهم النبلاء ـ أى الناس ذوى «البشرة السمراء»، وقبيحى المنظر، والأغبياء، والأذلاء، والجبناء، والكذابين، والخائنين، والذين لا يصلحون إلا أن يكونوا عبيدًا، وينهمكون فى العمل الاقتصادى لكى يدعموا السادة فى حياتهم الحرة الخاصة بالمغامرة والثقافة. أما لفظ «خير» فهو يعنى بالنسبة للعبيد، من ناحية أخرى أناسًا مثلهم ـ أى أناسًا فقراء، ومغلوبين على أمرهم، ومعدمين، ويعانون، ومرضى، وقبيحى الخلقة، حلماء، وضيعى المقام، وضعاف العقل، بينما لفظ «شر» يعنى بالنسبة لهم (للعبيد) الإنسان النبيل، والشرير، والفظ، والشهوانى، والمتغطرس، والقوى.

وقد انتصرت الطبقات الذليلة، التى قادها الكهنة الذين أرادوا أن تكون لهم اليد الطولى، انتصاراً كاملًا على الطبقات النبيلة مع ظهور المسيحية، التى أنقصت من قدر فضيلة النخوة، والبسالة مثل الشجاعة، وتأكيد الذات، والشرف، وتقدير الجمال، ورفعت من قدر التعاطف، والشفقة، والحلم، والنبل، والحل السلمى، والذلة، والإبقاء على الكسيح، والأعرج، والأعمى، والغبى، وغير الكفء، والذين يعانون من صفات من هذا النوع. وتدين المسيحية بأصلها لليهود، الناس الأذلاء الذين كرهوا الفاتحين ذوى النخوة. إن اليهود ماكرون حتى إنهم رفضوا المسيحية دينًا لهم، وبهذا الرفض احتالوا بسهولة على

الرومان فى قبولها. ودافع المسيحية الخفى هو أمل العبد فى أن يقتص من أسياده والسيطرة التامة عليهم، وذلك وعد المسيح فى الكتاب المقدس من الوحى وفى أعمال الرسل وآباء الكنيسة، بأنه سوف ينتصر على أسياده فى العالم الآخر، وسيفرح بالتمتع بأنواع الغبطة والسعادة فى الجنة، عندما يراهم يتململون فى صنوف من عذاب جهنم الأبدية.

ونتيجة هذا الانتصار للمسيحية، بالإضافة إلى حركات مشابهة فى الروح، مثل الديمقراطية، وخلاص العبيد، والمساواة فى حقوق النساء والمساواة فى حقوق العمال، وانتشار الاشتراكية، هى المحافظة على السلالات والطبقات الضعيفة والوضيعة من البشر وانتشارها، وإضعاف الأوربيين المحدثين ذهنيًا وجسديًا، وكبت الفردية، والنبل الحقيقى، وخنق الموسيقى العظيمة، والفن، والأدب، وبوجه عام قلب كل القيم المناسبة. لقد حدثت تأكيدات مؤقتة من جديد للقيم الحقيقية القديمة أحيانًا، كما هى الحال فى عصر النهضة وفى سيرة نابليون. غير أن هذه التأكيدات قد تَّم إخمادها وزالت ـ فقد أزالت حركة الإصلاح الدينى عصر النهضة، وأزال الحلفاء، الذين حركتهم مبادىء ديمقراطية، نابليون. إن نيتشه لاذع وقاسى، ويشعر أنه يقاتل وحده فى معركة، غير أن لديه أملًا فى أن أوربا قد تدرك مع مرور الأيام حقيقة ما يقوله، وأن سيتم استعادة الحضارة القديمة. وقد ظهر أحيانًا إنسان فى العالم الحديث يتنبأ إلى حد ما بما عساه أن يكون الإنسان الأعلى: ومن الأشخاص الذين تتم تزكيتهم نابليون، وجوته، وليبنتس، وفولتير ـ وحتى قيصر بورجيا(٥). ومن بين النماذج السيئة ـ عدا رجال الدين المسيحيين ـ الذين ناصروا أخلاق العبيد فى العصور الحديثة: «جون ستيوارت مل»، وهربرت سبنسر.

ويأمل نيتشه فى تجاوز جميع القيم، وأن يتم قلب أخلاق العبيد المهيمنة الآن، والعودة إلى أخلاق النبلاء. والفن هو الدافع العظيم إلى النشاط، ويتم التعبير عن إرادة القوة، بصورة ملائمة، فى الفن، ويكون للكون تبريره النهائى. ومعظم الفن الحديث، لسوء الطالع، منحط وفاسد ورديء؛ لأنه يروق الطبقات الديمقراطية. ولابد أن يستعيد الفن روحه القديمة ويربط الاتجاهين الديونسيسى والأبوللونى، بصفة خاصة الاتجاه الأول. ولا يتوقع نيتشه أن تقبل الطبقات الديمقراطية آراءه؛ إذ يكفى جدًا بالنسبة لها أن تستمتع بأخلاق العبيد وفنهم، اللذين يعبران عن روح خسيسة. وربما كان لابد لهما أن يستمرا فى الوجود، وأن يجعلا الإنجازات العليا للنبل ممكنة عن طريق عملهما. لكن تلك الطبقات ستبلغ مرة أخرى السمو وتنتج أرواحًا عظيمة ومبدعة، تعد الطريق للإنسان الأعلى فى كل

دائرة متتابعة من دوائر العالم التى تتكرر على الدوام. وعلى الرغم من أن نيتشه كان يكره الديمقراطية ، فمن المشكوك فيه ما إذا كان سيحب «هتلر» أم لا. لقد تصور نيتشه نفسه «أوربيًا فاضلًا» لا وطنيًا ألمانيًا.

٥ ـ تقييمات

يعتقد معظمنا أن نيتشه كان مخطئًا أكثر من كونه مبررًا فى مزاعمه. لقد كان، فى الغالب، ذا قيمة من حيث إنه مصلح. وعلى أية حالة، يميل الباحثون الكلاسيكيون إلى الاعتراف بأنه كان على حق فى تفسيره للروح اليونانية المبكرة والحضارة التى سبقت عصر سقراط، ويسلّمون بأنهم مدينون له(٦). ومن المحتمل، أنه لا أحد من علماء الرياضة، وعلماء الفيزياء، وعلماء الفلك يستحسن مذهب العود الأبدى(٧). ويعتقد أغلب الفلاسفة المعاصرين أن التطور ليس ماديًا تمامًا أو آليًا، وهو يعبر على الأقل من بعض الوجوه، عن مبدأ روحى باطنى. ويجدون شيئا ما موحيًا فى مفهوم «إرادة القوة» عند نيتشه، على الرغم من أن البعض يفضل نسبة العقلانية والذكاء لتلك الإرادة، ويميل المؤلهة إلى أن يجدوا فيها تجليًا لله.

والقول بأن ثمة انحطاطًا وتدهورًا فى الشعوب الأوربية فى العصور الحديثة هو قول مشكوك فيه؛ إذ أن مضامين البيولوجيا لا تشير بالتأكيد إلى الرغبة فى حروب يتم فيها تدمير خيرة الشباب. وتعتقد كثير من العقول المفكرة، من ناحية أخرى، أن السكان يتناسلون، فى الغالب، عن طريق العناصر الأقل صلاحية فى السلالة. ولابد أن نأمل فى أن علمًا دقيقًا لتحسين الجنس البشرى سوف يتطور أحيانًا حتى إنه يستطيع أن يحدد مَنْ الذى لا ينجب ومن الذى يحدد النسل. ولا وجود لمعلومات علمية موثوق بها تمامًا متاحة فى هذا الموضوع الآن.

ويؤمن معظمنا بالديمقراطية، وتندم قلة قليلة على زوال العبودية، أو على الاعتراف للنساء بالحقوق المتساوية مع الرجال، وتحسين حالة الطبقات العاملة. وقلما يعتقد أحد أن الطبقات الأكثر تواضعًا فى المجتمع لابد أن تُستغل لمصلحة الارستقراطيين ذوى الامتيازات. ومع ذلك، فهناك حد لفرض الضرائب على المجتهدين، والمقتصدين بدرجة كبيرة، والأكثر نجاحًا، ولابد من حثهم بالتالى على الزواج متأخرًا وأن تكون لديهم

عائلات صغيرة، بينما يستفيد العاطلون، والأقل طموحًا، والأقل مسئولية من النفقات العامة الكبيرة.

حقًا إن رعاية الفنون والآداب، فى الماضى، واليوم عن طريق الطبقات الأكثر غنى قد ساعدت على تحقيق إنجازات رفيعة ذات قيمة حضارية باقية. وعندما قدمت الصور المتحركة، وموسيقى الراديو، والتصوير، متعة أستاطيقية للجماهير، لم تبرهن، مع ذلك، على أن الديمقراطيات تستطيع أن تنتج أو تتذوق فنًا من الطراز الأسمى. ونحن فى أمريكا فخورون بحقيقة تذهب إلى أن أعدادًا كبيرة من الشباب بالنسبة إلى السكان يلتحقون بمدارسنا الثانوية وجامعاتنا أكثر مما كان عليه فى الماضى فى بلدنا، أو فى أى بلد آخر فى أى عصر. ومع ذلك لابد من الإقرار بأن نوع التعليم الذى يُحصَّل فى مؤسساتنا التعليمية يجب أن يُقلل بالنسبة إلى البلدان الأوربية الأفضل لكى نطوعه لمصلحة الأعداد الغفيرة التى تزدحم بها مدارسنا، ونطوعه أيضًا لاستيعابها الذهنى. وثمة حقيقة مؤكدة فى الفكرة التى تقول «بأرستقراطية الأذهان»، وهى حقيقة تجاهلتها مؤسساتنا التعليمية.

لقد قَبِلَ نيتشه تفسير شوبنهور للمسيحية بأنها دين ينكر العالم، ويفضل الزهد، ويؤكد حياة ضيقة ومقيدة. ويتفق معظمنا مع نيتشه فى رفض ذلك النوع من المسيحية الذى يفضله شوبنهور فى نزعته التشاؤمية. لكن كثيرًا منا يعتقد أن المسيحية الأولى والمسيحية التى أعقبتها لم تكن من ذلك النوع. والمسيحية التى يلجأ إليها معظم الناس فى القرن العشرين ليست من ذلك النوع. فهى تؤكد النخوة، والاعتماد على النفس، والعالم. وهى تريد أن يبحث كل فرد عن تحقيق حياة أكثر ثراء وكمالًا لنفسه وللآخرين. وإذا اهتمت مسيحية القرن العشرين بأن تحقق توزيعًا متكافئًا للفرص، وحماية كل شخص، فإنه لا يتم النظر إلى ذلك على أنه خطأ. وليس من الضرورى أن نكون قاسيين، وغليظى القلب، ولا نعرف الرحمة والشفقة، حتى تكون لدينا مثل نبيلة، ونكون شجعانًا، وكرماء، وأمناء، وعادلين، وحكماء، ومعتدلين. وتنظر الكنيسة المسيحية إلى انتقادات نيتشه بإخلاص وفحص أمين للذات، مدركة إخلاصه لها، والشجاعة التى سببت له خسارة زملائه كانت من جراء ذلك. إن الكنيسة يمكن أن تتعلم، فى الغالب، كثيرًا من انتقاداته القاسية. لكن معظمنا يعتقد أن الكنيسة، بوجه عام، كانت على حق أكثر من نيتشه.

جديدة، لا تهتم بالإعداد لحياة مستقبلية، بل تهتم بالتحسين الفيزيائى والأخلاقى للطبقات المتواضعة فى هذا العالم. ولقد نجح هذا الرجل النبيل المتحمس، الذى خسر ثروته، لكنه استمر فى الإيمان بحلول نظام اجتماعى أفضل، فى جذب كثير من الطلاب فى مدرسة الهندسة. وكان من بينهم «أوجست كونت»، الذى أوحى له «سان سيمون»، فى أول الأمر، بمعظم أفكاره المهمة فى صورة غير تامة. ومن بين الفلاسفة الكلاسيكيين الذين تأثر بهم «كونت» «بيكون»، الذى، ربما، وجه نظره إلى الاستقراء، و«ديكارت» الذى وجه نظره إلى الاعتماد على المناهج الرياضية والتنظيم النسقى للتفكير، ورجال عصر النهضة الفرنسيين، الذين وجهوا نظره إلى حماسه للتقدم، و«هيوم» الذى وجه نظره إلى مذهبه الوضعى.

٢ ـ حياة كونت

كان أوجست كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) الابن الأكبر لموظف صغير يعمل فى مكتب تحصيل الضرائب فى«مونبلييه»، وكان ملكيًا وكاثوليكيًا ورعًا. وتفوق أوجست على كل الطلاب الآخرين فى المدرسة الثانوية المحلية، وكان الأول على كل الولاية فى امتحان مسابقة للالتحاق بمدرسة الهندسة فى باريس عندما كان فى سن الخامسة عشرة، وكان صغيرًا فى السن حتى إنه لم يُسمح له بالالتحاق بها حتى بلغ سن السادسة عشرة. ودرس، فى هذه المدرسة، على يد أفضل المدرسين فى فرنسا، الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء. وكتب التماسًا وقع عليه هو والتلاميذ الآخرون، قبل معركة «واترلو» بمدة وجيزة، مطالبين بمساعدتهم فى الدفاع الوطنى. وزار «نابليون» المدرسة، واحتفى به بإخلاص. وبعد ذلك ليس بمدة طويلة، بعد استعادة إقليم بوربون، ضايق أحد المدرسين التلاميذ، فقد كان يجلس القرفصاء على كرسى، ويضع قدمه على منضدة عندما كان يوجه تلاميذه. وعندما تم استدعاء كونت لكى يقص الحكاية، تقلد موقفًا مشابهًا. وعندما وبخه ذلك المدرس، رد قائلًا «سيدى، اعتقد أنه من الصواب أن أحتذى بك». وكتب التلاميذ التماسًا ضد المدرس. وانتهزت السلطات ـ التى اعتبرت مدرسة الهندسة مكانًا للعصيان الجمهورى ـ الفرصة لكى تحافظ على النظام وتطرد المخالفين. وبذلك فقد كونت عندما كان فى سن الثامنة عشرة الفرصة لكى يحصل على تعليم عن طريق مساعدة عامة. وبعد ذلك، عندما واصل